١٧- لا تكثر الكلام...

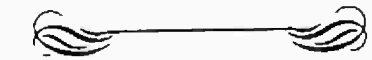

اعلم يا بني ويا بنيتي أن" الكلام تَرجُمان يُعبر عن مستودعات الضمائر، ويُخبر بمكنونات السرائر، لا يمكن استرجاع بوادره، ولا يُقدَر على رد شوارده.

فحقٌ على العاقل أن يحترز من زَلَلِهِ بالإمساك عنه أو بالإقلال منه".[١]

وعن أبي إسحاق الفزاري قال: كان إبراهيم بن أدهم رحمه الله، يطيل السكوت، فإذا تكلم ربما انبسط.. قال: فأطال يومًا السكوت، فقلت: لو تكلمت ؟ فقال: الكلام على أربعة وجوه:

فمن الكلام كلام ترجو منفعته، وتخشى عاقبته، والفضل في هذا السلامة منه.

ومن الكلام كلام لا ترجو منفعته ولا تخشى عاقبته، فأقل مالَكَ في تركه خفة المُؤنة على بدنك ولسانك.

ومن الكلام كلام لا ترجو منفعته ولا تأمن عاقبته، فهذا قد كُفي العاقل مُؤنته.

ومن الكلام كلام ترجو منفعته وتأمن عاقبته، فهذا الذي يجب عليك نشره".[٢].

---

(١)أبو الحسن علي بن حبيب البصري الماوردي/ أدب الدنيا والدين / شرح وتعليق محمد كريم راجح١٩٨١م٣٣٧

(٢) الحافظ أبي بكر عبد الله بن محمد بن عبيد بن أبي الدنيا / الصمت وحفظ اللسان / تحقيق وتعليق د .محمد أحمد عاشور القاهرة دار الاعتصام ط الثانية ١٩٨٨م ص٥٠.

و" قال علي بن أبي طالب ـ كرم الله وجهه ـ: اللسان معيار أطاشه الجهل، وأرجحه العقل.

وقال بعض الحكماء: الزم الصمت تُعد حكيمًا، جاهلًا كنت أو عالمًا.

وقال بعض الأدباء: سعد من لسانه صموت، وكلامه قوت.

وقال بعض العلماء: من أعوذ ما يتكلم به العاقل أن لا يتكلم إلا لحاجة أو محجته، ولا يفكر إلا في عاقبته أو في آخرته.

وقال بعض البلغاء: الزم الصمت فإنه يكسبك صفو المحبة، ويؤمنك سوء المغبة، ويُلبسك ثوب الوقار، ويكفيك مئونة الاعتذار.

وقال بعض الفصحاء: اعقل لسانك إلا عن حق توضحه، أو باطل تدحضه، أو حكمة تنشرها، أو نعمة تذكرها". (١)

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ أَكْثَرِ مَا يُدْخِلُ النَّاسَ الْجَنَّةَ؟ ، فَقَالَ : تَقْوَى اللَّهِ وَحُسْنُ الْخُلُقِ ، وَسُئِلَ عَنْ أَكْثَرِ مَا يُدْخِلُ النَّاسَ النَّارَ ، فَقَالَ: الْفَمُ وَالْفَرْجُ ". (٢)

لأن اللسان" هو أداة التعبير الأولى عن النفس، والنفس ميالة لأشياء كثيرة، واللسان أقرب الطرق للتعبير عن هذه الأشياء.

وما أكثر الأشياء التي تميل إليها النفس، ولا يصح أن تظهر على اللسان.

النفس ميالة للفخر، وميالة للسباب والخصام إذا غضبت، وميالة للمسامرة حتى في اللغو، وميالة لانتقاص الآخرين، وميالة لأن تُشعر الآخرين بفضلها.

---

(١) أدب الدنيا والدين ص٣٣٧ .

(٢) رواه أحمد والترمذي وابن حبان والحاكم .

كل ذلك وأمثاله كثير مما لا ينبغي أن يُعطي المسلم نفسه مداها فيه".[١]

وقيل :" اجتمع أربعُ ملوك فرموا رمية واحدة بكلمة واحدة، ملك الهند، وملك الصين ،وكسرى، وقيصر.

قال أحدهم: أنا أندم على ما قلت، ولا أندم على ما لم أقل.

وقال الآخر: إني إذا تكلمت ملكتني ولم أملكها، وإذا لم أتكلم ملكتها ولم تملكني. وقال الثالث: عجبت للمتكلم، إن رجعت عليه كلمته ضرته، وإن لم ترجع لم تنفعه. وقال الرابع: أنا على رد ما لم أقل، أقدر مني على رد ما قلت".[٢]

ولذلك كان" الصمت مقدمة في الضبط، فمن نجح في الصمت كان حريًا أن ينجح في الكلام المنضبط بتوفيق الله".[٣]

وعَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ جَاءَ أَعْرَابِيٌّ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ عَلِّمْنِي عَمَلًا يُدْخِلُنِي الْجَنَّةَ فَقَالَ : " لَئِنْ كُنْتَ أَقْصَرْتَ الْخُطْبَةَ لَقَدْ أَعْرَضْتَ الْمَسْأَلَةَ أَعْتِقْ النَّسَمَةَ وَفُكَّ الرَّقَبَةَ ، فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَوَلَيْسَتَا بِوَاحِدَةٍ ، قَالَ لَا ،إِنَّ عِتْقَ النَّسَمَةِ أَنْ تَفَرَّدَ بِعِتْقِهَا ،وَفَكَّ الرَّقَبَةِ أَنْ تُعِينَ فِي عِتْقِهَا وَالْمِنْحَةُ الْوَكُوفُ وَالْفَيْءُ عَلَى ذِي الرَّحِمِ الظَّالِمِ، فَإِنْ لَمْ تُطِقْ ذَلِكَ فَأَطْعِمْ الْجَائِعَ، وَاسْقِ الظَّمْآنَ ،وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ، وَانْهَ عَنْ الْمُنْكَرِ ، فَإِنْ لَمْ تُطِقْ ذَلِكَ فَكُفَّ لِسَانَكَ إِلَّا مِنْ الْخَيْرِ ".[٤]

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : " إِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مَا يُلْقِي

(١) سعيد حوى / تربيتنا الروحية / القاهرة دار السلام ط التاسعة ٢٠٠٧م ص١٢٥.
(٢)الصمت وحفظ اللسان ص٥٤.
(٣)تربيتنا الروحية ص١٢٥.
(٤) رواه أحمد .

لَهَا بَالًا يَهْوِي بِهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مَا يُلْقِي لَهَا بَالًا يَرْفَعُهُ اللهُ بِهَا فِي الْجَنَّةِ ". (١)

وقال الحسن بن هانئ في فضل الصمت:

خل جنبيك لرام ∴ وامض عنه بسلام
مُت بداء الصمت خير ∴ لك من داء الكلام
رُبَّ لفظ ساق آجا ∴ ل نيام وقيام
إنما السالم من أل ∴ جم فاه بلجام

وقد اتفق أهل العلم والرأي، وحكماء الدهر، على أنه من كثر كلامه كثرت هفواته وسقطاته.

حَدَّثَنَا أَبُو أُسَامَةَ عَنْ يَزِيدَ وَأَبِي الْأَشْهَبِ عَنْ الْحَسَنِ قَالَ : " كَانَ يُقَالُ: قَلْبُ الْمُؤْمِنِ وَرَاءَ لِسَانِهِ ، فَإِذَا هَمَّ بِأَمْرٍ تَدَبَّرَهُ ، فَإِنْ كَانَ خَيْرًا تَكَلَّمَ بِهِ ، وَإِنْ كَانَ غَيْرَ ذَلِكَ سَكَتَ ، وَقَلْبُ الْمُنَافِقِ عَلَى طَرَفِ لِسَانِهِ ، فَإِذَا هَمَّ بِشَيْءٍ تَكَلَّمَ بِهِ وَأَبْدَاهُ ". (٢)

وعَنْ أُمِّ حَبِيبَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا زَوْجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : " كَلَامُ ابْنِ آدَمَ عَلَيْهِ لَا لَهُ إِلَّا الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنْ الْمُنْكَرِ وَذِكْرَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ ". (٣)

وعَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " لَا تُكْثِرُوا الْكَلَامَ بِغَيْرِ ذِكْرِ اللهِ، فَإِنَّ كَثْرَةَ الْكَلَامِ بِغَيْرِ ذِكْرِ اللهِ قَسْوَةٌ لِلْقَلْبِ ،

(١) موطأ مالك - كتاب الجامع - باب مَا يُكْرَهُ مِنْ الْكَلَامِ والغيبة والتقى .
(٢)رواه ابن أبي شيبة في كتاب الزهد .
(٣) رواه الترمذي وابن ماجة.

وَإِنَّ أَبْعَدَ النَّاسِ مِنْ اللَّهِ الْقَلْبُ الْقَاسِي ".[١]

فكل هذه الأحاديث والأخبار يا بُني تؤكد على ما في الكلام من خطر محدق بمن يُكثر منه، في غير محله، ودون الحاجة إليه.

للكلام فضل...

ومع هذا يا بُني فاعلم أن للكلام فضل أيضًا، وفيه خير، فقد" بُعثت الأنبياء بالكلام ولم يبعثوا بالسكوت. وبالكلام وصف فضل الصمت، ولم يُوصف القول بالصمت، وبالكلام يُؤمر بالمعروف ويُنهى عن المنكر، ويُعظم الله ويُسبح بحمده.

والبيان من الكلام هو الذي مَنّ الله به على عباده، فقال:﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝٤ ﴾ [الرحمن : ٣ - ٤] .

والعلم كله لا يؤديه إلى أوعية القلوب إلا اللسان، فنفع المنطق عام لقائله وسامعه، ونفع الصمت خاص بفاعله".[٢]

وقد بين النبي - ﷺ - أن للكلام الطيب الذي يُنتفع به، ويُرجى خيره فصل، وأنه مما يُتقى به من عذاب الله تعالى ، فَعَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ ذَكَرَ النَّارَ فَتَعَوَّذَ مِنْهَا وَأَشَاحَ بِوَجْهِهِ ثَلَاثَ مِرَارٍ ثُمَّ قَالَ: " اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَبِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ ".[٣]

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

---

(١) رواه الترمذي.
(٢) العقد الفريد ص٤٠١ .
(٣) متفق عليه.

"الْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ خُطْوَةٍ يَخْطُوهَا إِلَى الصَّلَاةِ صَدَقَةٌ".(١)

ومما في الكلام من فضل أنه مما يُعرف به الإنسان، وما يُكنه في نفسه. ولذلك قالوا: تكلم حتى أراك

وقالوا: المرء مخبوءٌ تحت طرف لسانه.

من مضار كثرة الكلام...

١ـ تُقسي القلب، وتجعله بعيدًا عن الله تعالى.

٢ـ سبب من أسباب دخول الإنسان النار.

٣ـ كثرة الأخطاء والزلل.

٤ـ لا يأمن كثير الكلام من الخوض في أعراض الناس.

٥ـ لا يأمن كثير الكلام من الوقوع في الغيبة والنميمة.

٦ـ كثرة الكلام تُظهر أقبح ما في الإنسان من أخلاق.

٧ـ تولد الخصومة بين أفراد المجتمع.

٨ـ يؤدي إلى ظلم الآخرين.

٩ـ دليل على خفة عقل الإنسان، وقلة علمه.

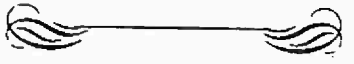

(١) متفق عليه.